

## الجدل المذهبي بين المالكية والشيعة عند انتصاب العبيديين

بقلم: محمد اليعلاوي

عمل الفاطميون أول انتصابهم بإفريقية، بعد أن ملكوا المعازل ودكّوا الحصون، على استدراج العقول وأجتلاب القلوب، فنظموا حلقات للجدل والمناظرة يدعون إليها «العلماء مدنيّهم [أي المالكية] وعراقيّهم [الأحناف]» ليتباروا مع دعائهم في مسائل عقائدية وكلامية، أو فقهية وتاريخية، وحتى لغوية أدبية، وذلك لكسب الأنصار لمذهبهم وإقناع أهل القيروان بصحة مقولاتهم وصواب شعاراتهم.

هذه المجالس كانت في أول الأمر مفتوحة للأنصار والخصوم جميعاً، وفيما بعد، حين تركّزت الدولة، ولا سيّما بعد انتصارها على أبي يزيد صاحب الحمار، تحوّلت إلى ما سُمّي عندهم «مجالس الدعوة» أو «مجالس الحكمة»، وهي مخصصة بالأنصار والأتباع على مستويات مختلفة، وقد ذكر قاضيهم النعمان بن محمد (ت 363) هذه الحلقات الدعائية التكوينية، فيما يخصّ الفترة الإفريقية، في كتاب يومياته وتقييداته مع المعزّ الفاطميّ، الموسوم بالـ «مجالس والمسائرات»<sup>(1)</sup>، وفصل الحديث عنها المقرئ في

---

(1) نشر بتونس سنة 1978. وانظر ص 467 منه.

خططه<sup>(1)</sup> فيما يخصّ فاطمّي مصر .

والحلقات القيروانيّة ذكرتها أيضاً المصادر السنيّة ككتاب أبي بكر المالكيّ (ت بعد 360) رياض النفوس<sup>(2)</sup>، ولكنها ترويهَا لغاية معاكسة تماماً، وهي الإشادة بتفوّق فقهاء القيروان على دعاة الشيعة وتوفّقهم السريع الميسور إلى دحض بدّعهم الممقوتة ومقولاتهم الدخيلة. فاتخذ أبو العرب (ت 333) في طبقاته<sup>(3)</sup> والمالكيّ في الرياض ثمّ الدبّاغ (ت 696) في معالم الإيمان<sup>(4)</sup> من أبي عثمان سعيد بن الحدّاد (ت 302) بطلاً لهذه المقاومة الصامدة للدولة المنتصبة، ورمزاً لانتصار القيروان - نظريّاً على الأقلّ - على الدخلاء المبتدعين. يقول المالكيّ: وكانت له مقامات في الدين مع الكفّة المارقين: أبي عبد الله الشيعيّ وأبي العباس [المخطوم] أخيه وعبيد الله [المهديّ] لعنة الله عليهم، أبان فيها كفرهم وتعطيلهم وزندقته<sup>(5)</sup>، بل يصفق له أحد الأنصار، وهو موسى القطان (ت 306)، المعروف بتفسيره، قائلاً: لو سمعتموه في تلك المحافل، وقد اجتمع له جهازة الصوت، وفخامة المنطق، وفصاحة اللسان، وصواب المعاني، لتمنّيتم أن لا يسكت!<sup>(5)</sup>.

والقضايا التي يخوض فيها الدعاة مع أرباب المالكيّة متنوّعة، تتناول الفقه وأصوله، ومناقب الصحابة ومراتبهم، وبعض المسائل الكلاميّة ذات المدلول السياسيّ، وحتى الاستشهاد باللغة والشعر على عادة الشراح والفقهاء والمفسّرين، إلّا أنّها ترمي كلّها إلى غاية جدليّة: إمّا تثبيت مقولة شيعيّة من جانب الداعي، وإمّا نفيها من جانب أبي عثمان، كما نتبيّن من هذه النماذج

(1) الخطط المقرّية 2/223.

(2) رياض النفوس، تحقيق البشير البكوش في جزءين بدار الغرب الإسلامي، بيروت 1994.

(3) طبقات علماء إفريقيّة لأبي العرب والخشنيّ، نشر محمد بن أبي شنب، الجزائر 1914.

(4) معالم الإيمان للدبّاغ وابن ناجي، تونس 1902.

(5) رياض 2/75.63.

التي انتقيناها من ترجمة الفقيه القيرواني في الطبقات والرياض :

فمن القضايا الأصولية استفسار أبي عبد الله لبعض الفقهاء الحضور عن معنى السنة فيتلعثم في الجواب فيهب أبو عثمان لنجدته فيحصر مفهوم السنة في معنى الـ «اتسء» بالرسول ﷺ قولاً وعملاً، وأمرأً ونهياً، ويعزز معنى الأسوة، أي اتخاذ النبي قدوة، والعمل بمثل عمله، ببيت ذي الرمة في معنى المثال والشكل والصورة [بسيط]:

تُريك سنّة وجهٍ غير مُقرّفةٍ      ملساء ليس بها خالٌ ولا ندبٌ

ولكن قصده الخفي هو نفي الزعم الشيعي بأن الشرع هو ما يقرره أئمتهم بدعوى انتسابهم إلى بيت النبوة.

وفي الأصول أيضاً ينكر أبو عبد الله القياس في استنباط الأحكام الشرعية فيستشهد أبو عثمان بآية الصيد (المائدة 95) «التي أمرنا الله فيها أن نمثل بالقياس والاجتهاد ما لم يُنصّ ذكرُ عينه» وهو هنا أيضاً يدفع في الحقيقة زعم أئمة الشيعة بأنهم أهل أكثر من غيرهم لإصدار الأحكام الفقهية<sup>(1)</sup>.

وعلى ذكر الأحكام الفقهية يسأل الداعي أبا عثمان عن مستند أهل السنة من القرآن في حدّ شارب الخمر، فيجيبه بالقياس المعروف بين قاذف المحصنات والسكران الذي يهذي فيفتري «فوجب عليه ما يؤول إليه أمره، وهو حدّ القاذف»<sup>(2)</sup>. وهذا السؤال مستغرب من الداعي الشيعي ولعله مدسوس عليه لتشويه الفاطميين كما فعل سهل الوزاق في بعض أحاجيه لهم [كامل]:

متهمكاً في خمره وسماعه      متردداً في الغي والشبهات  
هدم المساجد وابتناها منزهاً      لمضارب العيدان والنايات

بل ينقل لنا القاضي النعمان عن المعز استنكاره الشديد لعادة رعاياه في الخروج إلى الطبيعة في الربيع للقصف والمجون إذ يقول: ليت شعري! ما

(1) رياض 77، 76/2.

(2) رياض 79/2.

يبحث النظر إلى النّوار والخضر من لذة شرب المسكر؟ بل ما في شربه من اللذة، وهو يحيل حسن الصورة إلى القبح والعورة، من امتلاء الوجه واحمراره، واستحالة البصر وازوراره، واعوجاج الشدق وسيلان الريق، إلى ما يحدثه من زوال العقل والحلم وذهاب المعرفة والفهم؟<sup>(1)</sup>.

ومن المسائل الفقهيّة أيضاً اختلاف الحدّ في الزنا بين المحصنة والأمة، فيتجاهل الداعي - وهو هنا أبو العباس - فيسأل: كيف يكون عقاب الأمة نصف عقاب المحصنة، «كيف يُعقلُ نصفُ الرجم وقد يُقتلُ بـ [حجرة] واحدة؟» فيتفطن أبو عثمان إلى الفخّ المنسوب له، فيشرح الفرق بين الخاصّ والعامّ من أحكام القرآن ويقول: أراد نصف ما عليهنّ من عذاب الجلد دون الرجم، ويختم احتجاجه بلباقة فائقة فيستشهد بعقاب عليّ بن أبي طالب لشراحة الهمدانيّة بالجلد والرجم معاً<sup>(2)</sup> فكان عليّاً (رضه) أخصّص على تطبيق ما جاء به كتاب الله وسنة رسوله من هؤلاء الناطقين باطلاً باسمه.

وفي خصوص موقف أهل القيروان من عليّ يقول أبو عبدالله لأبي عثمان، وقد اعتبره زعيم المالكيّة بإفريقيّة ورأس القيروانيين المترجم عنهم: يا أهل المدينة [بالمدلولين، أي مدينة القيروان ومدينة الرسول موطن مالك بن أنس] إنكم تُبغضون عليّاً<sup>(3)</sup>، فينفجر أبو عثمان قائلاً: على مبغض عليّ لعنة الله والملائكة والناس أجمعين! - ويستشهد في مهارة فائقة بقولة سحنون: عليّ إمامي في الدين أهتدي بهديه وأستنّ بسنته - لكنّه، لئن أعلن حبّ المالكيّة لعليّ، فإنّه لا يساير الشيعة في تفضيلهم له على سائر الصحابة ولا سيّما الشيخين (رضهما)، ويؤكد تورّع أهل القيروان عن الميل مع قوم دون قوم في الخلاف السياسي الذي جدّ يوم السقيفة واستفحل بعده، وتعلّقهم بأصحاب النبي كلّهم، كما يقول أبو القاسم الفزاريّ في رائيته التي

(1) المجالس والمسائرات 330.

(2) رياض 2/90، وقد قال لها عليّ: جلدتك بكتاب الله ورجمتك بسنة رسول الله.

(3) رياض 2/83.

يعتزّ بها كلُّ قيروانيٍّ لما فيها من تعظيم للمدينة وإشادةً بعلمائها وصلحائها [وافر]:

وإنّا بعدُ من خوف وأمن      نحبُّ، إذا تشعّث الأمورُ  
رسولَ الله، والصدّيقَ، حبّاً      به تُرجى السعادةُ والحُبورُ  
وبعدهما نحبُّ القومَ طُرّاً      وما اختلفوا فرُبُّهم غَفورٌ<sup>(1)</sup>

ومسألة تفضيل عليٍّ عند الشيعة تجرّ الفقيه القيروانيّ إلى جواب لعلّه، هو أو راوي المناظرة أو أبو العرب صاحب الطبقات، لم يقدّر أبعاده: يسأله أبو عبد الله: أليس عليٌّ بأفضلهم؟ فيقول ابن الحدّاد: قد ملكت مدائن كثيرة قبل مدينتنا هذه - وهي أعظم مدينة - واستفاض عنك الخبر أنّك لم تُكره أحداً خالفك في مذهبك على الدخول فيه، فاسلك بنا مسلك غيرنا! <sup>(2)</sup>. ففي هذا الجواب اعترافٌ بتسامح الفاطميّين مع خصومهم في المذهب في جميع المدن التي فتحوها من إفريقيّة - ذاك معنى عبارة استفاض الخبر - وفيه تضعيف للاتّهامات الكثيرة المكرّرة بالقهر والعسف والتنكيل التي تزخر بها كتب القيروانيّين التي ذكرناها، أو الأندلسيّين كالبيان المُغرب لابن عذارى (ت 712) أو المغاربة كترتيب المدارك للقاضي عياض (ت 544)، فقد تبسّطوا وأطنبوا في استفظاع ما ينسبونه إليهم من أعمال العسف ضدّ السنيّين فقالوا إنّهم قتلوا عروساً المؤدّن سنة 307 بعد أن قطعوا لسانه وعلّقوه بين عينيه لأنّه لم يؤدّن بحيّ على خير العمل، وأنّهم صلبوا قاضي برقة الحبليّ سنة 341 لأنّه لم يتوخّ الحساب في تقدير هلال شوال فلم يصلّ العيد بالناس مثل أرباب الدولة، واتّهموهم أيضاً بأنّهم كلّفوا عملاء لهم من السفهاء بأن يعلّقوا «على أبواب الحوانيت والدروب رؤوس أكباش وحمير وغيرها، عليها قراطيس معلّقة مكتوب فيها أسماء الصحابة»<sup>(3)</sup> فثارت نائرة أهل الصلاح وقرروا الخروج لمؤازرة أبي يزيد الخارجيّ في حصار المهديّة وقال فقيههم أبو الفضل الممسيّ: إنّ الخوارج من أهل القبلة لا يزول عنهم اسم الإسلام

(1) رياض 2/93.

(2) رياض 2/86.

(3) رياض 2/152، 338، 404.

يُورَثُونَ وَيَرَثُونَ، وَبَنُو عُبَيْدٍ مَجُوسٌ زَالٌ عَنْهُمْ الْإِسْلَامُ فَلَا يُتَوَارَثُ مِنْهُمْ وَلَا يُنْسَبُ إِلَيْهِمْ<sup>(1)</sup>. وَخَرَجَ أَيْضاً ربيع القَطَّانَ وَلَكِنَّهُ تَحَرَّجَ وَتَحَفَّظَ وَاخْتَارَ بَيْنَ الشَّرِّينَ: الشَّيْعَةَ وَالْخَوَارِجَ فَقَالَ: فَإِنْ ظَفَرْنَا بِهِمْ، لَمْ نَدْخُلْ تَحْتَ طَاعَةِ أَبِي يَزِيدَ لِأَنَّهُ خَارِجِيٌّ، وَاللَّهُ يَسْلُطُ عَلَيْهِ إِمَاماً فَيُخْرِجُهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِنَا وَيَقْطَعُ أَمْرَهُ عَنَّا<sup>(2)</sup> وَلَكِنْ لَا ربيع وَلَا أَبُو الْفَضْلِ وَلَا أَبُو الْعَرَبِ وَلَا غَيْرُهُمْ مِنَ الصُّلَحَاءِ شَهِدُوا ذَلِكَ الْيَوْمَ السَّعِيدَ فَقَدْ اسْتَشْهَدُوا سَنَةَ الْأَثَلَاثِ فِي وَقْعَةِ الْوَادِي الْمَالِحِ قَرَبَ مَدِينَةِ مَسَاكِنِ الْحَالِيَةِ.

وَيَبْدُو أَنَّ الْمَصْرِيِّينَ أَيْضاً تَخَوَّفُوا مِنَ الطُّقُوسِ الشَّيْعِيَّةِ أَنْ يَفْرَضَهَا عَلَيْهِمْ جَوْهَرٌ عِنْدَ دَخُولِهِ الْفُسْطَاطَ، فَاضْطَرَّ الْقَائِدُ الصَّقْلَبِيُّ إِلَى تَطْمِينِهِمْ بِالْعَهْدِ الَّذِي عَقَدَهُ لِمَوْفُودِيهِمْ بِاسْمِ الْمَعَزِّ فَكُتِبَ: «ضَمَنْتُ لَكُمْ» [إِقَامَتَكُمْ عَلَى مَذَاهِبِكُمْ، وَأَنْ تُتْرَكُوا عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ ثِبَاتِكُمْ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ سَلْفُ الْأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَالتَّابِعِينَ بَعْدَهُمْ وَفُقَهَاءِ الْأُمُصَارِ الَّذِينَ جَرَتْ الْأَحْكَامُ بِمَذَاهِبِهِمْ وَفُتُوَاهُمْ، وَأَنْ يَجْرِيَ فَرَضُ الْأَذَانِ وَالصَّلَاةِ، وَقِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ<sup>(3)</sup> وَفَطْرُهُ وَزَكَاتُهُ... عَلَى مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَنَصَّه بِنَبِيِّهِ ﷺ فِي سُنَّتِهِ<sup>(4)</sup>] فَأَقْرَهُمْ بِهَذَا الْعَهْدِ عَلَى فَقْهِهِمُ الشَّافِعِيِّ، وَلَمْ يُلْزَمْهُمْ بِالْحَيْعَلَةِ وَلَا بِالْجَهْرِ بِالْبِسْمَلَةِ فِي الصَّلَاةِ، وَلَا بِالْخُمْسِ مِنَ الْأَمْوَالِ لِلْإِمَامِ، وَلَا بِاتِّبَاعِ الْحِسَابِ فِي تَقْدِيرِ الشَّهْرِ.

وَهُنَا يَحْسَنُ بِنَا أَنْ نَشْرَحَ مَوْقِفَ الشَّيْعَةِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ مِنْ قَضِيَّةِ تَقْدِيرِ الْهَلَالِ بِالْحِسَابِ أَوْ طَلَبِهِ بِالرُّؤْيَةِ. لَقَدْ كَانُوا يَعْتَمِدُونَ الْحِسَابَ، لَا الْحِسَابَ الْفَكْلِيَّ الَّذِي يُقَدَّرُ بِهِ الْعُلَمَاءُ وَلَادَةُ الْهَلَالِ سَلْفاً فِي مَأْمَنِ مِنَ الشَّكِّ وَالْغُلْطِ، بَلْ حِسَاباً اصْطِلَاحِيّاً كَالَّذِي تُوزَعُ فِيهِ الْأَشْهُرُ الشَّمْسِيَّةُ مَنَاصِفَةً وَتَدَاوُلَاً بَيْنَ أَشْهُرِ ذَوَاتِ ثَلَاثِينَ يَوْماً وَأُخْرَى ذَوَاتِ وَاحِدٍ وَثَلَاثِينَ، فَرَتَّبُوا الْأَشْهُرَ الْقَمَرِيَّةَ

(1) رياض 2/298.

(2) رياض 2/339.

(3) يعني صلاة التراويح.

(4) المقفّي للمقريزي، بيروت دار الغرب الإسلامي، 1992، ج 3 ص 92.

تباعاً بين شهر كامل ذي ثلاثين يوماً، بدءاً بالمحرّم، ثم يليه شهر ناقص بتسعة وعشرين، صفر، ثم ربيع أول بثلاثين فربيع ثان بتسعة وعشرين، وهكذا دواليك، فيكون شهر رمضان كاملاً بن شهرين ناقصين ويكون صيامهم «ثلاثين يوماً على الدوام»، وعزّزوا حسابهم هذا بحديث نبوي: ما تمّ شعبان ولا نقص رمضان<sup>(1)</sup>.

لكنّ جوهرأ، والحقّ يقال، لم يُبدِ نفس الأريحية فيما بعد مع عماله وقضاته. يقول المقرئ في ترجمته: «وأفطر جوهر على عددٍ بغير رؤية وصلى صلاة العيد بالقاهرة... ولم يصلّ أهل مصر [أي الفسطاط المدينة العتيقة] وصلّوا من الغد في جامع عمرو، وفيهم القاضي أبو طاهر الدهلي، وكان قد التمس الهلال على عادته في سطح الجامع فلم يره. فلما بلغ ذلك جوهرأ أنكره وعاتب عليه وتهدّد فيه»<sup>(2)</sup>، ولكنه لم يصلّبه ولا عزّله، واكتفى بلومه على قلّة انسجامه مع تعاليم الدولة وهو قاضيه.

ولكنّ المصريّين، وخاصّة سكّان الفسطاط، لم يهدأوا ولم يقبلوا الطقوس والشعائر الشيعيّة، وتفاقت المقاومة، سلبية أو عنيفة، فاضطرّ الحاكم، الخليفة الفاطميّ حفيد المعزّ، إلى تهدئة الخواطر في شهر رمضان 395 بسجّل قرى على المنابر جاء فيه بالخصوص: «يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون، ولا يُعارضُ أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون... صلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع منها ولا عنها يُدفعون. يُخمسُ في التكبير على الجنائز المخمسون ولا يُمنع من التكبير عليها المربّعون»<sup>(3)</sup>. يُؤدّنُ بحيّ على خير العمل المؤدّنون ولا يُؤذَى من بها لا

(1) انظر كتاب محمد حسن الأعظمي: الحقائق الخفية عن الشيعة الفاطمية والاثني عشرية، القاهرة 1970 ص 65.

(2) المفقى، ج 3 ص 101.

(3) في تعليل التكبير خمساً يقول قاضيهم النعمان بن محمد (دعاء الإسلام ج 1/236) نقلاً عن جعفر الصادق: يكبّر على الجنائز خمساً أخذ ذلك من الصلوات الخمس.

وجاء في رثاء أبي تمام لبعض رؤساء الشيعة (ديوانه طبعة دار المعارف ج 4 =

يؤذنون. ولا يُسبُّ أحدٌ من السلف...<sup>(1)</sup>. ولا نستنتج نحن من سجلّ الحاكم هذا حجة على تسامح الفاطميين مع خصومهم، وعلى إيمانهم بحريّة الرأي والمعتقد، وضمنانهم لحقوق الإنسان، وإنّما نلاحظ أنّ الظروف السياسيّة في ممالكهم، والضغط الاجتماعيّ، وغضب الرعايا، وتحفّظ علماء الدين إزاءهم، كلّ ذلك يحملهم على المهادنة وتليين الموقف. ولعلّ هذا الاعتبار هو الذي يحدو أبا عبدالله الداعي وأخاه أبا العباس والمهديّ عبيدالله إلى اتّخاذ هذا الموقف مع ابن الحدّاد وأصحابه.

ولكنّ القيروانيين لم تَلِن عريكتهم، وبَقُوا مناهضين للبيديّين بالقلب واللسان إذ لم ينجحوا في مغالبتهم بالسيف، واعتصموا بصلحتهم وفقهائهم، وهكذا نسبوا إلى الزاهد أبي إسحاق السبائيّ (ت 356) مثلاً كراماتٍ خاصّة في حماية الشعراء المناهضين للشيعة من انتقام البيديّين: فهذا سهل الورّاق بعد نظمه التائيّة التي نقلنا منها بيتين يلوذ بالسبائيّ وقد أوجس خيفةً من السلطان العبيديّ، فیدعو له أبو إسحاق فيستقدمه المنصور إسماعيل ويستنشد التائيّة فينشده القصيدة كلّها. يقول المالكيّ: «فلم يصل إليه بمكره ووصله وأكرمه، وذلك كلّ بدعاء الشيخ رضي الله عنه<sup>(2)</sup>». فلا حديث عن أريحية المنصور ولا حتى عن ملاينة منه للشاعر ليقطع لسانه، كما يقال، عن الدولة والنحلة. ونفس التسامح أبداه المنصور إزاء الفزاريّ بعد أن استنشد قصيدته الرائيّة، قال المالكيّ: «فلما فرغ من إنشادها لم يعرض له إسماعيل بسوءٍ فعافاه الله تعالى من شرّه بدعاء الشيخ السبائيّ<sup>(3)</sup>»، وكذلك

= ص 95 هذان البيتان (طويل):

وتكبيره خمساً عليه مُعَالِناً      وإن كان تكبير المصلين أربعُ  
وما كنتُ أدري - يعلم الله - قبلها      بأنّ الندى في أهله يَشْتَبِعُ

(1) تاريخ ابن خلدون ج 4 ص 60. وخطط المقرئ 287/2، وأنما الحنفاء له، 78/2.

(2) رياض 498/2.

(3) رياض 294/2.



بعد سماعه للقصيدة الفزارية المطولة وهي ميمية تعدّ سبعة وستين بيتاً خصّص الشاعر نصفها الأوّل لذكر جملة كثيرة من أبطال العرب وفرسانهم وأجوادهم في الجاهلية خاصّة كأوس بن سعدى وكنيب وائل وحاتم طيّء وبسطام وعنترة والشنفرى وكعب بن مامة وهرم بن سنان، فربط مناعتهم وعزّهم في وقتهم بمنعته هو اليوم في كنف المنصور، بل يزيد فيقول: ما هؤلاء جميعاً [طويل]:

... بأمنع منّي في جوارٍ خليفة عطوفٍ على أهل البيوتاتٍ راحم  
كريم الأيادي والمساعي نمت له أبوءُ صدقٍ من ذؤابة هاشم  
... له من إمام المرسلين وصنوهم عليّ، معالٍ ثباتُ الدعائم

وهي قصيدة لم يوردها المالكي ولا صاحبها المعالم، ولا غرو: كيف يُثبتون في كتبهم هذه الأبيات وفيها اعترافٌ بالخلافة للبيديين، وللمنصور بإمرة المؤمنين، ولعليّ بمساواة المرسلين؟ وفي الجانب المقابل نرى الداعي إدريس (ت 872) في كتابه عيون الأخبار<sup>(1)</sup> يكاد يطرح القسم الأوّل، التاريخيّ الأدبيّ، بأكمله، وينقل القسم الثاني، المدحيّ، برمته، ولا عجب كذلك: فالفقيه السنّي ينقل الهجوّ، والمؤرّخ الشيعيّ ينقل المدح، كما لم ينقل السنّي أنّ المنصور «عفا عن الفزاريّ ووصله وحمله على جواد وأجرى عليه وأحسن إليه» كما فعل المؤرّخ الشيعيّ، أي أنّ الخليفة الفاطميّ ألحقه بشعرائه الرسميين في بلاطه - ذاك ما نفهمه من عبارة «وأجرى عليه» أي رتب له جراية قارة - وغضّ الطرف عن سابق هجوه له يوم كان فقهاء القيروان يتعاطفون مع أبي يزيد ويتمنون له النصر على الفاطميّ بل ينضمّون إلى الثائر النكاريّ لأنه «من أهل القبلة يقاتل قوماً ليسوا من أهل القبلة» ويلاقون حتفهم سنة 333 في وقعة الوادي المالح كما أسلفنا، وقد قال أبو القاسم الفزاريّ إذ ذاك [كامل]:

عبدوا ملوكهم وظنّوا أنّهم نالوا بهم سبب النجاة عموماً  
... رغبوا عن الصديق والفاروق في أحكامهم، لا سلّموا تسليماً

(1) نشرناه سنة 1985 ببيروت، دار الغرب الإسلامي، بعنوان: تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب. انظر ص 456 و458 منه.

... أمن اليهود؟ أو النصارى؟ أم هم دهرية جعلوا الحديث قديماً؟  
... يا رب فالعنهم ولت لعينهم بأبي يزيد من العذاب أليماً!

\*\*\*

وتظهر براعة أبي عثمان في الجدل، مع تجنب العنف أو التهكم أو الغضب، في حسن تخلصه من مآزق ثلاثة عمل الداعي على إيقاعه فيها، وهي: حديث الغدير، والتصلية على الأئمة، ونظرية الفاضل والمفضل.  
ففي هذه القضية الأخيرة، وفحواها أن الذيغة لا يجوزون تقديم المفضل، أي الشخص الذي اختارته الجماعة، مع وجود الفاضل، أي من هو أفضل من الذي اختاروه، وهم بالطبع يرمزون إلى اختيار الشيخين ثم عثمان للخلافة، مع وجود عليّ، وهو عندهم يفضلهم جميعاً، أجاب أبو عثمان بقصة طالوت (البقرة، 247): ﴿وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً﴾ فقال: ثبت أن الله قدّم المفضل على الفاضل، إذ كلنا لا نملك، نحن ومن خالفنا، أن نبيهم أفضل من طالوت، وطالوت هو المفضل<sup>(1)</sup>. ولا يخفى أن أبا عثمان لا يمثّل أبا بكر بطالوت ولا عليّاً بنبي القوم، فاستشهاده بالآية لا يعني أنه دخل في منطق الداعي، وقد سبق له، كما رأينا، أن رفض المفاضلة بين الصحابة، وأطرى الداعي على تسامحه مع الخصوم ورجاه أن يسير مع أهل القيروان بنفس السيرة. وهنا أيضاً اعترف أبو عثمان لأبي عبدالله بالأريحية فقال معلقاً: هذا مجلس دار بيني وبينه ما رأيتُه أقرب إلى الإنصاف منه فيه، وكأنّه في مناظرته لي إنما يناظرني عن مذهب غيره.

التصلية على الأئمة جرّدها أبو عثمان من معنى التقديس، ورجع بها إلى معنى الدعاء والرحمة في اللغة فاستشهد ببني الأعشى [بسيط]:

تقول بنتي وقد قرّبتُ مُرتَحِلاً      ياربّ، جنبّ أبي الأوصاب والوجعا  
عليك مثل الذي صلّيت، فاغتمضي      نوماً، فإنّ لجنب المرء مضطجعاً

ويضيف: فالصلاة من الله رحمةٌ ومن الآدميين دعاءٌ، ويرفع صوته قائلاً: نعم، فصلّى الله على عليّ وفاطمة والحسن والحسين، وعلى أهل طاعته

(1) طبقات أبي العرب، 208.

أجمعين من أهل السماوات والأرضين<sup>(1)</sup> فيشمل بتصليته أهل الكساء  
والمؤمنين جميعاً، ولكنه لا يتورط بالتصلية على أئمتهم المهديين وآبائهم  
الطاهرين كما يدعونهم.

أما حديث الغدير، وهو مستندهم الأساسي في المطالبة بالخلافة لعلّي  
وذريته دون سواهم، فأبو عثمان لا ينكره كما لا ينكره الجمهور، وإنما  
ينكرون تأويلهم له بأنه نص من النبي ﷺ على الوصية بالحكم لعلّي من بعده  
وبخلافه على الأمة، فيلجأ صاحبنا مرةً أخرى إلى اللغة ويميز بين مفاهيم  
كثيرة للولاية والمولى والولاء: يسأله أبو عبدالله: قد قال النبي ﷺ: من كنتُ  
مولاه فعليّ مولاه. أفليس عليّ مولاك؟ فيجيب: المولى في كلام العرب:  
الوليّ، وابن العمّ، والمُعْتَقُ، والمُنْعَمُ عليه. فعليّ مولاي بالمعنى الذي أنا به  
مولاه، ومعنى «مولاي»: على الولاية في الدين، لا مولى عتاقة، فعليّ مولى  
المؤمنين بأنه وليّهم، وهم مواله بأنهم أولياؤه<sup>(2)</sup>.

وتتواصل المناظرة وتنجم قضايا أخرى كتفضيل العالم (عليّ) على  
المتعلّم (أبو بكر وقد سأل عليّاً عن فرض الجدة) فيقول أبو عثمان: قد يفوق  
التلميذ أستاذه. وكتمثيل عليّ مع الرسول بهارون مع موسى، وكرمي أبي  
عثمان بالغرور إذ يزعم أنه أعلم الناس بالدين فلا يحتاج فيه إلى زيادة، وهي  
المرّة الوحيدة التي يحتدّ فيها النقاش - وهو هذه المرّة مع أبي العباس -  
فيصيح: ألا أحدّ يكتب ما أقول ويقول، غضباً لله تعالى؟ وقد وُجد ولا شكّ  
من سجّل المناظرة، وإلا ما وصلت إلينا.

\* \* \*

نترك الآن الكتب السنّة وننظر قليلاً في كتب شيعة وردت فيها أحكام  
وملاحظات تهّم علاقة الدولة العبيدية بالقيروانيين. ففي المجالس  
والمسايرات ينقل لنا القاضي النعمان غضب المهديّ على من أشار عليه  
باعتماد فقه العامة - ويعنون بالعامة أهل السنّة، والمالكيّة بالخصوص - في

(1) رياض 84/2.

(2) رياض 91/2.

ترك توريث ذوي الأرحام، وهم الأقارب الذين لم تنصّ آياتُ الموارِيثِ عليهم ولا يرثون بالتعصيب<sup>(1)</sup>، ونصّحه بردُّ التركة إلى بيت المال، فيؤيد المعزّ موقف جدّه، ويقول، معترفاً ضمناً بالقطيعة بينهم وبين رعاياهم بإفريقيّة: لو تركناهم وانتحالهم واختيارهم... لأحبّونا وسلّموا لنا<sup>(2)</sup>. ونجد الموقفَ نفسه عند جوهر بمصر: خاطبه القاضي الذهليّ في بنت وأخ [أي للهاك] وقد كان حكم قديماً للبنت بالنصف وللأخ بالباقي، فقال جوهر: يا قاضي، هذه عداوة لفاطمة عليها السلام!<sup>(3)</sup>

وينقل لنا أيضاً نقاشاً بين المعزّ «وبض النحويّين ممّن يتنحل قول العامّة» فيسأله: كيف رضيتم أن تأخذوا علمكم في اللغة عن أهل بوادي العرب وهم أجلافٌ جهّال، بدعوى أنّهم مطبوعون على اللغة وأنّهم أهلها ومعدنّها، ولا تأخذون ما جهلتم من أمر دينكم عنّا نحن أهل بيت رسول الله ﷺ وخُلصاءه وعيّبه سرّه؟<sup>(4)</sup> وبالطبع يسكت النحويّ السنّي ولا يحير جواباً.

وفي المقابل ينقل لنا النعمان أيضاً دفاعاً قوياً من المعزّ عن علماء إفريقيّة، ولكّنه دفاعٌ يأتي في سياق ملاحاةٍ كلاميّة بينه وبين الناصر الأمويّ منافسه على الخلافة بقرطبة. قال عبدالرحمان الناصر متقصّاً إفريقيّة: وإنّما بها بربرٌ أغتأم لا يميّزون شيئاً، فيقول المعزّ: لم يرَ هذا الجاهلُ أئمّته الذين هم فيما يزعمون فقهاءُ أهل بلده، وإنّما أخذوا علمهم أكثره عمّن كان بإفريقيّة، وكتبهم إلى اليوم في أيديهم، وكلّ من طرأ منهم يأخذ عنهم - ويرمي خصمه بالعقوق إزاء البربر الذين يعبرون إليه العدو مجاهدين «فلولا من ينزِعُ إلى ناحيته منهم رغبةٌ في جهاد المشركين، ولولا دُبهم عنه، لما قرّ به قراره ولا اطمأنت به داره»<sup>(5)</sup>.

\*\*\*

(1) انظر بداية المجتهد لابن رشد، باب الفرائض ج 2 ص 333.

(2) المجالس والمسائرت، 97.

(3) المقفّي، 103/3.

(4) المجالس والمسائرات، 199.

(5) المجالس والمسائرات، 190.

وبعد، فهذه نماذج من الخصومة السياسيّة المذهبيّة، والمناظرة الكلاميّة الفقهيّة، التي طبعت علاقة الفاطميّين برعاياهم في إفريقيّة، وهي خصومة وصلت إلى حدّ العداوة المسلّحة وآلت في نهاية الأمر إلى ترك المعزّ إفريقيّة إلى مصر، حسب بعض المؤرّخين كحسين مؤنس وجورج مارسي، وإن كنّا نرى مع فرحات الدشراوي<sup>(1)</sup> أنّ فتح مصر وانتقال الدولة إليها كان في نيتهم الأولى وبرنامجهم الأصليّ، وهو بسط النفوذ الإسماعيليّ على كافة البلاد الإسلاميّة، وقد مهّدوا لهذه السيطرة بإرسال الدعاة شرقاً وغرباً فانتشرت دعوتهم في الإمارات التي تقسّمت الخلافة العبّاسيّة، حتى صار القرن الرابع الهجري يُنعت بأنّه القرن الإسماعيليّ للإسلام.

وأردنا بهذه العيّنات أن نُنصف الفاطميّين بعضَ الإنصاف، ونبرّتهم من تُهم القمع والإرهاب والتقتيل التي يطيب لخصومهم في الحكم والمذهب أن يلصقوها بهم، والحمد لله أولاً وآخراً.

**القيروان 15 أفريل 1994**  
**محمد اليعلاوي**

---

(1) انظر رسالته: الخلافة الفاطميّة بالمغرب، تعريب حمّادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي بيروت، 1994.

